جهود الأدباء والشعراء في مواجهة الاستعمار

د. محمد دياب غزّاوي[1]

المُلخّص

يتناول البحث جهود الأدباء والشعراء في العالم العربي لمواجهة الهجمة الاستعماريّة الشرسة التي تعرّضت لها المنطقة في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. يؤكّد الكاتب أنّ الأدب، بشقّيه الشعر والنثر، كان وما يزال المعبّر الحقيقي عن الواقع، ولم يقف مكتوف الأيدي أمام الاحتلال الغاشم. لقد أدرك الأديب النوايا الحقيقيّة للمستعمر الذي تستر بـ (الاستعمار)، فاستعمل الكلمة سلاحًا، والقصيدة معولاً لإثارة حماس الجماهير وإقامة الثورات، مجسّدًا ثنائية (السيف والقلم). وقد رصد البحث نماذج من هذه الجهود في مواجهة الاستعمار الفرنسي في مصر وتونس، والبريطاني في مصر، والإيطالي في ليبيا. ومن أبرز الأسماء التي أسهمت في أدب المقاومة: البارودي، وحافظ إبراهيم، وأحمد شوقي، وعبد الله النديم في مصر، وأبو القاسم الشابي في تونس. وقد عبّر هؤلاء عن رفض الظلم، والقمع، والاستبداد، ودعوا إلى التحرّر والاستقلال.

الكلمات المفتاحيّة: الأدب المقاوم، الاستعمار، الشعر الوطني، ثنائية السيف والقلم، التحرّر والاستقلال.

---

١. رئيس قسم اللغة العربيّة، وكلية الآداب، جامعة الفيوم سابقًا.

مقدّمة

كان الأدب ولا يزال المعبّر الحقيقي عن الحياة وما فيها من آمالٍ وآلام، وأفراحٍ وأتراح، وأفكارٍ وتخيّلات، فهو صورةٌ عن الواقع المعيش بكلّ ظهوراته، وتقلّباته، وتجلياته، وانعكاسٌ لما يحياه الناس من خيرٍ أو شر، فقرٍ أو غنى، استقرارٍ أو انتقال، صفاءٍ أو عناء، بلاءٍ أو هناء ... إلخ.

وإذا كان الإنسان مدنيًّا بطبعه، اجتماعيًّا بالفطرة، يتأثّر بما يعيشه، ويحيا فيما يراه، ويؤثّر – من ثمة – في من حوله، جبلة فطر عليها، وطبيعة عاش بها، فإذا كان هذا دأب الإنسان العادي وديدنه فإنّ هذا أقمن بالشاعر والأديب الذي يحيا بعواطفه، ويعيش بمشاعره، ويرتحل بأحاسيسه، ويتنقل برؤاه، تؤثر فيه الأشياء أكثر من غيره، تعركه الحوادث، وتنخله التجارب، وما سمّي الشاعر شاعرًا إلّا لأنّه يشعر بما لا يشعر به غيره، ويحسّ أكثر من سواه، ومن ثم يكون التعبير، ويتأتى الإبداع الممزوج بروح العصر وعبقريّة صاحبه.

ولم يكن الأدب العربي (شعرًا ونثرًا) بمعزلٍ عن هذي الهجمة الاستعماريّة الشرسة التي جابت جُلَّ إن لم يكن كلّ البلدان العربية أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، هجمة لم تبقِ ولم تَذر، أتت على الأخضر واليابس، تهتك الأرض، وتنتهك العرض، غير مباليةٍ بضمير، ولا مرتدعةٍ بخلق، ولا يصدها وازعٌ من إنسانيّةٍ، ولا تمنعها قوانين وضعيّةٌ، ولا شرائع سماويّة.

ومن ثَمّ، لم يقف الأدب مكتوفًا مكبلاً إزاء هذا الاحتلال الغاشم الذي تزيّا بأكثر من وجه، وتقنع بعديد من الرؤى؛ رغبةً في تحسين صورته، وتزيين مكانته؛ ولذلك نجده قد تسربل في رداء المخلِّص للعباد تارةً، وزي المعمِّر للبلاد تارةً أخرى، فاختار لنفسه مصطلح (الاستعمار)؛ حتى يخفي صورته القبيحة، ويداري سيماه الشوهاء الخبيثة، بيد أنّ ذلك كلّه لم ينطلِ على المواطن العربي، الذي عرف خبيئة المستعمِر ونواياه الدنسة، فما بالك بأفعاله القذرة، وأعماله القبيحة المستقذرة، وإذا كان هذا شأن المواطن العادي، فإنّ الأديب قد وقف مجاهدًا بكلّ قوته، مقاومًا، ثائرًا، محاربًا هذا الوباء المستشري، والمرض المتنامي، نعم، لقد أدرك الأديب طوية ذلك الاحتلال، وذلكم الاستعمار، الذي وإن غيّر اسمه ووشمه، وبدّل صورته ووسمه، فإنّه كان وسيظلّ عدو الأمم والشعوب، ونصير الاستبداد، وقهر النفوس والقلوب.

وقف الأدب إذن مناضلاً عن الوطن، مقاومًا المستعمِر، يستخدم الكلمة سلاحًا، والحرف مدفعًا، والخطبة قنبلة، والقصيدة معولاً، يثير الحماس، ويلهب المشاعر، ويستحث الجماهير،

ويقيم الثورات، يفعل ذلك جنبًا إلى جنبٍ مع السيف والسنان، ليكونا معا ثنائيّة (السيف والقلم)، تلكم الثنائية التي تضرب بجذورها في أعماق التاريخ في كلّ عصرٍ ومصر.

وورقتنا البحثيّة سوف ترصد باختصار جهود بعض الأدباء والشعراء في مواجهة هذا الاستعمار، وذلكم الاحتلال في بعض الدول التي منيت بهذا الداء، وحوصرت بهذا الشقاء، مع أكثر القوى الاستعماريّة التي عرفها التاريخ الحديث والمعاصر، (الاستعمار الإنجليزي، والاستعمار الفرنسي، والاستعمار الإيطالي).

كيف عبّر الأدباء والشعراء؟ كيف تصدّوا، وألهبوا مشاعر الجماهير بشعرٍ وطني مقاوم، يقطر حماسةً، ويمطر بألوان من الصور التي تبيّن قبح الاستعمار وأدواته القميئة، ومن ثم طرق التصدّي له، والخلاص منه؟

ونحن بالتأكيد لن يتسنى استعراض كلّ هذي الجهود في كلّ البلدان العربيّة التي منيت بهذا الداء - فإنّ هذا ممّا يحتاج إلى دراساتٍ مفصّلة، ليست من وكدنا الآن - وإنّما سنحاول إلقاء الضوء على أهمّ الأدباء والشعراء الذين كان لهم دورٌ بارزٌ في التصدي للمستعمِر، وكانوا صوت الشعوب المقهورة، والأمم المستضعفة، وصدى للحركات التحررية التي ما لبثت أن قامت من غفوتها، واستيقظت من غفلتها، معبرةً بقوّةٍ عن رفض الظلم والقمع والاستبداد والاستعباد، تصرخ بأعلى صوتها، وتقولها مدويةً: لن نُستعبد بعد اليوم، لن نُباع ولن نشترى، سحقًا لكلّ محتل، تبًا لكلّ مستعمِر، أهلاً بالحرية، مرحبًا بالحياة.

ثنائية السيف والقلم

لم تكن القبيلة في العصر الجاهلي تفرح إلّا بفرسٍ تُنتج وشاعرٍ ينبغ؛ بوصفهما أساس حياتهم، وعمدة معيشتهم لا تقوم إلّا بهما، ولا تتأتى إلّا من خلالهما، فرس وسيلةٌ للقتل والسنان، وشاعر وسيلةٌ الضرب باللسان، رأينا هذا منذ أقدم حروبهم على الإطلاق، حرب البسوس التي استخدمت فيها الكلمة بجوار السيف، والقصيدة بجانب السهام، والأمر كذلك مع كلّ حروبهم التالية وأيامهم المتوالية، في داحس والغبراء، وفي ذي قار، بل كان الشاعر بمنزلة المتحدّث الإعلامي الرسمي باسم القبيلة، يفتخر بأمجادها، ويمدح قادتها، ويرثي قتلاها، ويهجو أعداءها، ومن ثم نشأت مقولة (الشعر ديوان العرب)؛ بوصفه سجلاً للمفاخر، وأداةً للتوثيق والمآثر.

ولم تنفصم تلكم الثنائية عبر التاريخ السياسي للعرب مطلقًا، ومن ثم فحينما جاء الإسلام اتّخذ

من الشعر وسيلته الإعلاميّة الفاعلة، يفتُّ في عضد المشركين، ويخلخل من بنيتهم العصبية التي ظلّوا يقيمونها، ويتفاخرون بها رَدَحًا من الزمان، بل كان تُكأة في الحروب، وأداةً في الوغى، وليس أدلّ على هذا من قول النبيّ (صلّى الله عليه وآله)، وقد قرّب إليه الشاعر حسّان بن ثابت قائلاً له، محرّضًا إيّاه على التصدي بالكلمة للقوم: »اهجهم يا حسان، وروح القدس معك، والله إنّ هجاءك لهم أشدّ عليهم من وقع النبل في الليلة الظلماء«؛ مدركًا بذلك (عليه الصلاة والسلام) قيمة الكلمة في خلخلة الأعداء، وتشتيت كلمتهم.

واستمرّت الكلمة الفاعلة تقوم بدورها على مرّ العصور، جنبًا إلى جنب مع السيف، حتى وصل الأمر أن وجدنا كثيرًا من الشعراء يقومون بعمل مناظراتٍ خياليةٍّ بين أيّهما أولى بالسيادة وأحقّ بالتقدمة، رأينا هذا شعرًا مع أبي تمام في بائيّته الشهيرة في فتح عموريّة:

السيفُ أصدقُ أنباء من الكتبِ في حدّهِ الحدُّ بين الجد واللعبِ

ثم رأيناه نثرًا على يد مجموعةٍ من الكتاّب والأدباء، شرقًا وغربًا، كمناظرة السيف والقلم لابن الوردي، وابن برد الأصغر، والقلقشندي، وغيره.

فلما جاء العصر الحديث، وأطبقت هذي الطامة الكبرى على العالم العربي ممثلةً في تلكم الهجمة الاستعماريّة البربريّة تحت شعاراتٍ زائفةٍ من الحريّة والمساواة، والتخلّص من ظلم الحكام، ثارت الأدباء مع كلّ طبقات الشعب عليهم، في كلماتٍ أقوى من الرصاص، وأشدّ من السيف، وأنكى من السهام، يلهبون بها ظهر المستعمِر، ويشعلون بها حماس الشعوب، من خلال الالتزام بقضايا الوطن، داعين إلى التحرّر والاستقلال، والتصدّي للاستبداد والاستعمار، فيما أُطلق عليه (أدب المقاومة).

الاستعمار الفرنسي في مصر

لم تكن مصر بعيدةً عن تلكم الهجمة الاستعمارية الشرسة التي طالت جل البلدان العربية أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، بل كان لها النصيب الأوفر، ربما يرجع ذلك إلى مكانتها السياسيّة والجغرافيّة والديموجرافيّة، ومن ثم فقد تسابقت تلك القوى الاستعماريّة للسيطرة عليها، فكانت من نصيب كلٍّ من إنجلترا وفرنسا، في محاولة منهما لإخضاعها تحت السيطرة، ونهب خيراتها، وجعلها جزءًا لا يتجزّأ من مستعمراتهما.

وحينما رغبت فرنسا في قطع الطريق بين بريطانيا ومستعمراتها في الشرق من ناحية، ورغبتها في

تكوين إمبراطوريّةٍ شرقيّةٍ فرنسيّةٍ تكون قاعدتها مصر، ومن ثم فقد فكرت جديًّا في هذا الأمر ردحًا من الزمان؛ ولذلك فقد ظلّ هذا المشروع تفكير ساستهم وقادتهم منذ لويس الرابع عشر حتى بعد إعلان الثورة الفرنسيّة ١٧٩٨م، إلى أن خرج هذا المشروع الاستعماري إلى النور على يد القائد نابليون بونابرت عام ١٧٩٨م.

وقد سجّل الجبرتي هذه الأحداث (١٧٩٨- ١٨٠١ م)، ملخّصًا هول ما حدث ومدى تأثيره على تاريخ مصر في الجزء الخامس من تاريخه الكبير، وممّا قاله: «وهي أولى سني الملاحم العظيمة، والحوادث الجسيمة، والوقائع النازلة، والنوازل الهائلة، وتضاعف الشرور، وترادف الأمور، وتوالي المحن، واختلال الزمن، وانعكاس المطبوع، وانقلاب الموضوع، وتتابع الأهوال، واختلاف الأحوال، وفساد التدبير، وحصول التدمير، وعموم الخراب، وتواتر الأسباب»[١] ﴿**وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ**﴾[٢].

ولم يقبل المصريون مجيء الحملة الفرنسية ورفضوا هذا الاستعمار والتدخل في بلادهم لأول وهلة، ولعلّ هذا ما أكّده الزعيم المصري السيد محمد كُرَيِّم، بقوله: «هذه بلاد السلطان، وليس للفرنسيس، ولا لغيرهم عليها سبيل، فاذهبوا عنا»[٣].

وفي هذا الشأن يورد الجبرتي صورة الرسالة التي أرسلها نابليون بونابرت وأمر أن توزع في أرجاء مصر؛ تطمينًا لهم، وتهدئةً لمشاعرهم، مستعملاً في ذلك أسلوب الخداع والمراوغة والتدليس والكذب، متحدّثًا بأسلوب الناصح الأمين، والصراط المستقيم، مؤكّدًا في رسالةٍ مطولةٍ أنّهم موحّدون بالله، غير مشركين به، وأنّهم ما جاؤوا إلى مصر إلّا ليخلّصوها من ظلم المماليك، واحتقارهم لها، مبيّنًا أنّهم سيعاملون المصريين بالعدل، وسيرعون حقوقهم، كما سيراعون حقوق الدين الإسلامي، ذاكرًا في الخطاب أنّهم أيضًا مخلصون للخليفة العثماني ... إلخ.

وممّا ورد في هذي الرسالة الطويلة قوله: «بسم الله الرحمن الرحيم، لا إله إلّا الله، لا ولد له ولا شريك له في ملكه، من طرف الفرنساويّة المبني على أساس الحرية والتسوية، السر عسكر الكبير (القائد العام للعساكر الفرنسيّة) أمير الجيوش الفرنساويّة بونابرته، يعرف أهالي مصر جميعهم،

١. عبد الرحمن الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والآثار، ج٥، ص ١.

٢. سورة هود: الآية ١١٧.

٣. عبد الرحمن الجبرتي، تاريخ الجبرتي، ج٥، ص ١١.

أنّ من زمان مديد الصناجق الذين يتسلّطون في البلاد المصريةّ، يتعاملون بالذلّ والاحتقار في حقّ الملة الفرنسيّة، ويظلمون أهلها بأنواع الإيذاء والتعدّي، فحضر الآن ساعة عقوبتهم ... يا أيّها المصريون قد قيل لكم إنّني ما نزلت بهذا الطرف إلّا بقصد إزالة دينكم، فلا تصدّقوه، وقولوا للمفترين إنّني ما قدمت إليكم إلّا لأخلّص حقّكم من يد الظالمين، وإنّني أكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى، وأحترم نبيّه، والقرآن العظيم، وقولوا أيضا لهم إنّ جميع الناس متساوون عند الله، وإنّ الشيء الذي يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط، وبين المماليك والعقل والفضائل تضارب، ماذا يميّزهم عن غيرهم حتى يستوجبوا أن يتملّكوا مصر وحدهم، ويختصّوا بكلّ شيءٍ أحسن فيها من الجواري الحسان والخيل العتاق ... يا أيّها المشايخ والقضاة والأئمّة قولوا لأمتكم: إنّ الفرنساويّة هم أيضًا مسلمون مخلصون، وإثبات ذلك أنّهم قد نزلوا رومية الكبرى وخربوا فيها كرسي البابا الذي كان دائمًا يحثّ النصارى على محاربة الإسلام ...»[١].

ومما لا شك فيه أنّ الحملة الفرنسيّة كانت بدايةً لعصرٍ جديد، العصر الحديث؛ ذلك أنّها كانت بمنزلة الصدمة الحضاريّة للمجتمع المصري؛ إذ اصطحب نابليون معه كثيرًا من مظاهر المدنية (مسرح التمثيل، الصحافة، مراصد فلكية، مكتبات عامة، إنشاء الدواوين ...)، إضافةً إلى عشراتٍ من علماء الحملة، وإنشاء مجلس نوّاب، ثم هذا المشروع العلمي الضخم (إنشاء المجمع العلمي المصري)، وذلك على غرار المجمع العلمي الفرنسي، وكان من أغراضه:

١. نشر المدنيّة وبعث العلوم والمعارف بمصر.

٢. دراسة المسائل والأبحاث التاريخيّة والطبيعيّة والصناعيّة، ونشر الأبحاث في مجلة المجمع العلمي التي تنشأ لهذا الغرض.

٣. إبداء رأيه في الأمور التي تستشيره فيها الحكومة[٢].

وعلى الرغم من ذلك فإنّ هذا كلّه لم ينطل على المصريين، وبقدر انبهارهم به فقد وقفوا للحملة الفرنسية بالمرصاد، فثاروا عليهم، وتصدّوا لهم، مدركين أهدافها الخبيثة، وطويتها الدنيئة، فكانت ثورة القاهرة الأولى والثانية، وثورة الأزهر، ممّا ألجأ نابليون بونابرت أن يفر إلى فرنسا، ثم جاء كليبر وقُتل، وخلفهما جاك مينو الذي تظاهر بالإسلام، ثم سرعان أن انتهت الحملة الفرنسيّة

١. يُنظر: عبد الرحمن الجبرتي، تاريخ الجبرتي، ج٥، ص ٤.

٢. عمر الدسوقي، عمر الدسوقي، في الأدب الحديث، ج١، ص ٢٢.

بعد ثلاث سنواتٍ فقط، لتبرهن للقاصي والداني أنّ الشعب المصري شعبٌ حرٌّ، لا يقبل الذلّ ولا يرضى الخضوع والاستسلام والضيم، وكان ذلك بالضرب والسنان كما كان أيضًا بالكلمة واللسان.

وهكذا نرى «أنّ الاستعمار الفرنسي قد وجد في مصر ومن المصريين مقاومةً عنيفةً، وقد كان المصريون مع قلّة عدّة الحرب وأدواته لديهم، وتفوّق أسلحة الفرنسيين، وشدّة فتكها مصدر قلقٍ وتعبٍ للغزاة الفاتحين، لهذا لم يتورّعوا عن اتّخاذ أبشع الأساليب، وأقصى أنواع الضغط، وفرضٍ أفدحٍ الغرامات، والإتاوات؛ لإخضاع المصريين لسيطرتهم وجبروتهم، ولكنّ شيئًا من هذا لم يجد فتيلاً، ولم يحل دون جلائهم في نهاية الأمر، وعودتهم إلى بلادهم من حيث أتوا، يجرّون أذيال الخيبة، ويتعثّرون في أثواب الذلة والمسكنة»[١].

وقد وجدنا الأدباء في كثيرٍ من الأحيان ما يستهزئون بالفرنسيين وعاداتهم وتقاليدهم اليوميّة، كما ورد عند الجبرتي؛ فقد كانت لهم عنايةٌ خاصةٌ ببذل الأموال والتردد إلى الحانات والتغالي في شراء الفواكه، وركوب الحمير، وفي ذلك يقول الشيخ حسن العطّار مستهزئًا: [٢]

إنّ الفرنسيس قد ضاعت دراهمهم
في مصرنا بين حمارٍ وخمّارِ
وعن قريبٍ لهم في الشام مهلكةٌ
يضيعُ لهم فيها آجالُ أعمارِ

ومن جهاد الشعراء بالكلمة ما جاء في قول الشيخ المنير يحكي فيها عن استشهاد أحد الأبطال في سبيل الله وهو يحارب الفرنسيين، بعد أن اقتحم صفوفهم، وقوله: «أنا بعت نفسي في سبيل الله»، يقول [٣]:

١. شحاتة عيسى إبراهيم، عظماء الوطنية في العصر الحديث، ص١١٠.

٢. يُنظر: عبد الرحمن الجبرتي، تاريخ الجبرتي، ج٥، ص ٧٥.

٣. يُنظر: المصدر السابق، ج٥، ص ١١٢.

لم يَـبرْ مِنْهُـمْ سِـوَى أَيُّـوبَ مِـنْ أَلَـمٍ ... مُجـانِسُ دَاءِ خَصْـمٍ قـادِمٍ حَنِـقِ

بانَـتْ لَـهُ مِـنْ حِسـانِ الحُـورِ قائِلَـةً ... اِرْكُـضْ بِرِجْلِـكَ لِلْخَـيْراتِ وَاسْـتَبِقِ

وَاتْـرُكْ مُـرادًا إِلَى الدُّنْيـا وَلُـمَّ بِنَـا ... إِنّـا الحَيَـاةُ فَمِـلِ الـرُّوحَ وَاعْتنـقِ

أُمَّ الجِهَـادَ شَـهِيرَ السَّـيْفِ مُجْتَهِـدًا ... فِي كلمـةِ الحَـقِّ إِعـلَاءٌ عَـلَى الفِـرَقِ

اللـهُ أَكْـبَرُ وَالتَّوْحِيـدُ يَصْـحَبُهَا ... نِـدَاؤُهُ فِي عَجَـاجٍ مُظْـلِمٍ غَسَـقِ

لَقَـدْ تَـوَلّى عَـلَى عَـرْضِ الصُّفُـوفِ إِلَى ... أَنْ ضَمَّـهُ القَلْـبُ فَاسْـتَوْلَى عَـلَى حلـقِ

مَـا زَالَ يَقْتَـضُّ حَتّـى انْقَـضَّ كَوْكَبُـهُ ... وَطَـارَ مِنْـهُ بَهَـاءُ النُّـورِ لِلْأُفُـقِ

مَـضَى شَـهِيدًا وَحِيـدًا طَاهِـرًا سَـمْحًا ... مُغْسّـلًا بِـدَمِ الهَيْـجَاءِ لَا غَـرَقِ

تَمَيَّـزَ الجَوْهَـرُ المَكْنُـونُ مِـنْ صَـدَفٍ ... ثُـمَّ انْجَلَـى فِـي الحُـلِيِّ يُـدْعَى بِمُؤتلـقِ

كَانَ الجَـلَاءُ لَـهُ عَـيْنَ الجَـلَاءِ لَهُـمْ ... فَأَدْبَـرُوا بَائِعِيـنَ الخُـلْدَ بِالفَـلَقِ

ويتحدّث الجبرتي عن محاصرة الفرنسيس لعكا، وما أبلاه أهلها وأحمد باشا وعسكره من بلاء حسن، وفي ذلك يقول الأديب اللبيب السيّد علي الصيرفي الرشيدي، نزيل عكا المحروسة في هذه الواقعة، قوله من الخفيف[1]:

١. المصدر السابق، ج٥، ص ٢٢٣.

وأراهـــم قبيحهـــم حســـنَ قصـــدٍ نحـــو عـــكا ذات الســـعودِ البـــادي
فاســـتعدّوا لهـــا بـــالآتِ حـــربٍ ورجـــالٍ كثيـــرةٍ كالـــــجرادِ
خيّمـــوا حولهـــا بجـــيشٍ وخيـــشٍ ومتاريـــس ضـــاق منهـــا الـــوادي
أشـــبهوا قـــومَ صـــالحٍ في فعـــالٍ ينحتـــون الجبـــالَ لاستعـــــدادِ
في حصـــونٍ مـــن الـــترابِ تراهـــم شيـــدوها بقـــوة وعمـــــــادِ
فـــكأنّ الـــجنَّ الشياطيـــن فيـــهم يسرعـــون الأعـــمال عنـــد التنـــادي
حاصروهـــا وشـــددوا في حصـــارٍ واستمـــــدوا بـــكلّ نـــــوعِ مـــرادِ
ثـــم دارت رحـــى الحـــــروب لدينـــا يضـــــربون مدامـــة التـــــردادِ
كلّ يـــــومٍ وليـــلةٍ في رعـــــــودٍ وبـــروقٍ مـــن غيـــمِ ذاك الـــوادي
كـــم نهـــارٍ أضحـــى كليـــلٍ بهيـــــمٍ مـــن دخـــانِ الوغـــى غـــدا في ازديـــادِ

وربما بل من المؤكّد أنّ الأدب كان له دورٌ كبيرٌ في التصدّي لهذا الاحتلال؛ وذلك الاستعمار طوال السنوات الثلاثة، وأنّ الأديب قد أدّى دوره كاملاً مثله مثل غيره، وكما كان الجندي على أرض المعركة، كذلك كان الأدب؛ شعرًا ونثرًا، لكن كثيرًا من ذلك كلّه لم يصلنا؛ إذ لم يهتم النقاد بأدب هذي الفترة لما وسمت به من ضعفٍ وانهيارٍ وسم المرحلة كلّها (فترة الحكم العثماني)، قبل أن ندخل في العصر الحديث، ويلج الأدب كبقيّة مناحي الحياة، وتبدأ من ثم، حركةٌ شعريّةٌ قويّةٌ ممتثّلة في أولى مدارس الشعر الحديث (الإحياء والبعث/ النهضة)، ولعلّ هذا ما بدا جليًّا في التصدّي للاحتلال الإنجليزي على المستويات كافّة كما سنرى.

الاستعمار البريطاني في مصر

ونحن هنا بالتأكيد لا نتحدث عن حملة فريزر المبكرة، التي لم تمكث طويلاً، وإنّما نتحدّث عن تلكم الهجمة البربريّة حينما جاء الجيش البريطاني بقضّه وقضيضه عام ١٨٨٢، وكانت التربة المصريّة للأسف الشديد مهيّأةً لذلك، فقد بلغ ظلم الحكام آنذاك مداه، وتحكّموا في مصائر المصريين وأقواتهم ومعيشتهم، وانتشر الظلم، وغابت العدالة، وانتفت المساواة.

ولذلك قامت ثورة عرابي، وحينما دارت بينه وبين الخديو توفيق محاورة، كان ممّا قاله عرابي

له: «جئنا يا مولاي لنعرض عليك طلبات الجيش والأمة، وكلّها طلباتٌ عادلة، ولقد خلقنا الله أحرارًا، ولم يخلقنا تراثًا أو عقارًا، فوالله الذي لا إله هو إنّنا سوف لا نورث، ولا نستعبد بعد اليوم»[١]. وحينما كان يُحاكَم قال: «يا دعاة الحق: أمن العدل أن يحرم أبناء الوطن من كلّ وظيفة، ويأخذ الأجانب أماكنهم، ومن حضر إلى مصر من الشراكسة والألبان والبلقان؟! ولكننا سنجد بين حماة الإنسانيّة من يدافعون عن الحقّ في وجه طغيان هذا العهد الذي يسود منه وجه الإنسان»[٢].

ولم يقبل المصريون الاحتلال الإنجليزي منذ وطئت أقدامه أرض الكنانة، فكانت الثورة تلو الثورة، فلم يرضوا، ولم يخضعوا، ولم يستكينوا، ولم يرضخوا، غير آبهين بما يرفعه هذا المحتل من شعارات، وما يصكّه من مصطلحات صدّع بها رؤوسهم ليل نهار، مثل الحرية، والعدالة، والمساواة، والديمقراطية، ورفع الظلم، وتوزيع الثروات، إلى غير ذلك من الشعارات الموهمة الكاذبة الرنانة، التي ثبت زيفها، وانكشف أمرها مع مرور الوقت.

وكان الأدب، والشعر بخاصّة تعبيرًا عن حالة السخط والتبرّم من هذا المحتل الغاصب، الذي نهب الأرض، وانتهك العرض، وجاس خلال الديار، فأفسد البلاد، وقهر العباد، فكان الأدب إذن صورةً وانعكاسًا للواقع المعيش، والحاضر المزرٍ، الرافض لهذا المحتلّ المستعمِر الغاشم، الطامع، الذي خلف الوعود، ونقض المواثيق، وامتص دماء المصريين، وعمد إلى الغيلة والحيل.

ومن هؤلاء الشعراء الذين كان لهم دورٌ بارزٌ في هذا الشأن، البارودي (رائد الشعر الحديث)، ربّ السيف والقلم، الذي ثار على الظلم، ولم يرضَ بالضيم؛ ممّا جعله مبكّرًا يشترك في ثورة عرابي، متحدّثًا باسمها، رافعًا شعاراتها، حتى إذا ما فشلت نُفي مع غيره من الثوّار إلى جزيرة سرنديب. وقد نظم في ذلك شعرًا قويًّا، فيه حميّةٌ، وحماسةٌ، وتمرّدٌ على النُظم، محرّضًا المصريين على الثوّرة، مهيبًا بهم ألا يستكينوا للحاكم المستبدّ والسلطة القاهرة أيًّا كانت، مصوّرًا لهم في الوقت ذاته نفوسهم العاجزة الضعيفة التي تقبل الضيم، وترضى بالدنية، بقوله[٣]:

١. يُنظر: عمر الدسوقي، في الأدب الحديث، ج١، ص ٤٤٤.

٢. يُنظر: محمود الخفيف، أحمد عرابي الزعيم المفترى عليه، ص٥٠٦.

٣. محمود سامي البارودي، ديوان البارودي، ص٢٣٤.

فَيَـا قَـوْمُ هُبُّـوا إِنَّمَـا الْعُمْـرُ فُرْصَـةٌ ... وَفِي الدَّهْـرِ طُـرْقٌ جَمَّـةٌ وَمَـافِعُ
أَصَـبْرًا عَـلَى مَـسِّ الْهَـوَانِ وَأَنْتُـمُ ... عَدِيـدُ الْحَـصَى إِنِّي إِلَى اللَّـهِ رَاجِـعُ؟!
وَكَيْـفَ تَـرَوْنَ الـذُّلَّ دَارَ إِقَامَـةٍ ... وَذَلِـكَ فَضْـلُ اللَّـهِ فِي الأَرْضِ وَاسِـعُ؟!
أَرَى أَرْؤُسًـا قَـدْ أَيْنَعَـتْ لِحَصَادِهَـا ... فَأَيْـنَ وَلا أَيْـنَ السُّيُـوفُ الْقَوَاطِـعُ؟!
فَكُونُـوا حَصِيـداً خَامِدِيـنَ أَوِ افْزَعُـوا ... إِلَى الْحَـرْبِ حَتَّـى يَدْفَـعَ الضَّيْـمَ دَافِـعُ
أَهَبْـتُ فَعَـادَ الصَّـوْتُ لَـمْ يَقْـضِ حَاجَـةً ... إِلَيَّ وَلَبَّـانِي الصَّـدَى وَهْـوَ طَائِـعُ
فَلَـمْ أَدْرِ أَنَّ اللَّـهَ صَـوَّرَ قَبْلَكُـمْ ... تَمَاثِيـلَ لَـمْ يُخْلَـقْ لَهُـنَّ مَسَامِـعُ
فَـلا تَدَعُـوا هَـذِي الْقُلُـوبَ فَإِنَّـهَا ... قَوَارِيـرُ مَحْنِـيّ عَلَيْـهَا الأَضَـالِعُ

ويقول معرّضًا بالحاكم المستبدّ[1]:

يـا أيّهـا الظـالمُ في مـلكهِ ... أغـرّك الملـكُ الـذي ينفـدُ
اصنـع بنـا مـا شـئتَ مـن قسـوةٍ ... فاللـهُ عـدْلُ والتلاقـي غـدُ

ثم نراه يحرّض الأمةَ على اليقظة والقوّة حتّى لا يستهين السلطان بأمرها[2]:

وكـذاك السـلطان إنْ ظـنّ بالأمـ ... ـةِ عجًـا سـطا عليهـا وشـدا

والأمر كذلك في الصحف التي كانت مناوئةً للاحتلال، التي كان لها دورٌ كبيرٌ في تعريف الشعب بجرائم المحتلّ ومفاسد المستعمِر، وأغراضه الدنيئة، وممّا جاء في افتتاحيّة (مجلة العروة الوثقى) منددة بالاستعمار الإنجليزي قولها: «بلغ الإجحاف بالشرقيين غايته ووصل العدوان فيهم نهايته، وأدرك المتغلّب منهم نكايته، خصوصًا في المسلمين منهم، فملوك أُنزلوا عن عروشهم جورًا، وذوو حقوقٍ في الإمرة حرموا حقوقهم ظلمًا، وأعزاء باتوا أذلاء، وأجلّاء أصبحوا حقراء،

١. محمود سامي البارودي، ديوان البارودي، ص١٢٢.
٢. نفسه، ص١٣٣.

وأغنياء أمسوا فقراء، وأصحّاء أضحوا سقامًا، وأسود تحوّلت نعامًا، ولم تبقَ طبقةٌ من الطبقات إلّا وقد مسّها الضرّ من إفراط الطامعين في أطماعهم، خصوصًا من جراء هذي الحوادث التي بذرت بذورها في الأراضي المصرية نحو خمس سنواتٍ بأيدي ذوي المطامع فيها، حملوا إلى البلاد ما لا تعرفه فدهشت عقولها، وشدوا عليها بما لا تألفه فحارت ألبابها، وألزموها ما ليس في قدرتها فاستعصت عليه قواها، وخضدوا من شوكة الوازع تحت اسم العدالة، ليهيّئوا بكلّ ذلك وسيلةً لنيل المطمع فكانت الحركة العرابيّة فاتّخذوها ذريعةً لما كانوا له طالبين، فاندفع بهم سيل المصاعب، بل طوفان المصائب على تلك البلاد، وظنّوا بلوغ الأرب، ولكن أخطأ الظن وهموا بما لم ينالوا»[١].

واستمع كذلك إلى أديب إسحق تلميذ جمال الدين الأفغاني وأحد الألسنة التي أطلقها تندد بالاستعمار وحيله، كيف ينبّه المصريين إلى خداع الإنجليز، وتحذيرهم المصريين بتخفيض الضرائب (يتحدّث عن نوبار باشا صنيعة الإنجليز)، حتّى يمدحوا أيامهم، ويوازنوا بينهم وبين حكّامهم بما قدّم الإنجليز من عملٍ فثارت ثائرته، وقال: «فهل خفي عن تلك الصحف أنّ من شفقة الصيّاد على الطير إلقاؤه الحبّ بين يديها؟ أو لم تعلم أنّ القائل بهمجيّة المصريين، المعتقد بانحطاط مداركهم، لا يطعمهم هذا الفتات إلّا ليسهل على الإنجليز هضم قوتهم، والتهام ثروتهم! كلا إنّ الجرائد المصرية لا تجهل حقيقة الأمر، ولكنّها لا تستطيع التصريح، علمًا بأنّ اللص العازم على سرقة الحقوق الوطنيّة يكره النور، فإذا حاولت الجرائد إظهاره سارع إلى إطفائه بتعطيلها وإلغائها. يا أهل مصر: إنّي محدّثكم حديثًا غريبًا، إذا كان أمراؤكم خياركم، وأغنياؤكم أسخياءكم، وأموركم شورى بينكم، فظهر الأرض خير لكم من بطنها، وإذا أمراؤكم شراركم، وأغنياؤكم بخلاءكم، وأموركم إلى نسائكم فبطن الأرض خيرٌ لكم من ظهرها».

«غير أنّ الشعب قد رأى بعينه زعماءه يمثلون أمام محاكم عسكريّة كان المحتلّ فيها الخصم والحكم، فنكّلوا بهم في شكل أحكام الإعدام، والذي عدل إلى النفي، ومصادرة ما كانوا يملكون، أمّا السجن والتشريد فكان نصيب من شاركهم وطنيتهم»[٢].

١. يُنظر: عبد الرحمن الرافعي، مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال، ج١، ص ٤٤٣.

٢. يُنظر: م. ن، ص١٣.

ومن هؤلاء الأدباء الذين أدلوا بدلوهم في مجابهة الاحتلال بقوّة الكلمة (عبد الله النديم) الذي كان له دورٌ كبيرٌ في الوقوف ضدّ الإنجليز بكلّ ما أُوتي من قوة الكلمة وبراعة البيان، وسحر التبيان، ناهيك عن سخريةٍ لاذعة، وحجةٍ بالغة، وقد شارك مع عرابي إبّان ثورته، حتى كان لسانها المعبّر عنها، المتحدّث بها، وظلّ شاهرًا سيفه في وجه الإنجليز غير مبالٍ بهم وبسلطانهم القوي حتى مات، بعد أنْ لقي من جرّاء ذلك العنت الشديد والنفي والسجن والتشريد.

ومن خطبه الشهيرة محرّضًا المصريين للثورة ضدّ الإنجليز، محفزًا لهم: يا بني مصر: «هذه أيام النزال، هذه أيام النضال، هذه أيام الذود عن الحياض، هذه أيام الذبّ عن الأعراض، هذه أيام يمتطي فيها بنو مصر صهوات الحماسة، وغوارب الشجاعة، ومتون الإقدام لمحاربة عدو مصر، بل العرب، بل عدو الإسلام، الدولة الإنجليزيّة خذلها الله، وردّ كيدها في نحرها، فقاتلوهم قتال المستميتين، وليجدوا فيكم غلظة، واعلموا أنّ الله مع المتّقين، قوم نقضوا العهود، ونكثوا الأيمان، وهمّوا بإخراج أهل الحكم، وهم بدأوكم أول مرة: أتخشونهم فالله أحقّ أنْ تخشوه إنْ كنتم مؤمنين. يا أهل مصر، إنّما الإنجليز نَجَسٌ فلا يقربوا البلاد بعد عملهم هذا، وإنْ خفتم ضعفًا فتعاونوا وتآزروا ينصركم الله عليهم إنّ الله قويٌ عزيز، كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلًّا ولا ذمّةً، يذبّحون أبناءكم، ويستحيون نساءكم، وفي ذلك بلاءٌ من ربكم عظيم»[١].

ومن الشعراء الذين وقفوا ضدّ المستعمر بقصائده الرنّانة (ولي الدين يكن)، ومن ذلك قوله متألّمًا لما أصاب الوطن جراء هذا الاحتلال الغاصب والمستعمِر القذر، مصوّرًا مآسيه في قصيدةٍ بعنوان (أيّها الوطن) سنة ١٨٩٨ [٢]:

يبــكي بنــوك ويضحــك الزمــنُ
مــاذا أصابــك أيّهــا الوطــنُ؟!
مــا أوشــكت أن تنتهــي محــنٌ
إلّا وجــاءت بعدهــا محــن

١. يُنظر: عمر الدسوقي، في الأدب الحديث، ص ٣٩٦.

٢. يُنظر: ولي الدين يكن، ديوان ولي الدين يكن، ص٣٣.

أمـــا الرســـوم فإنّهـــا دُرســـت ... أمّـــا الرجـــال فإنّهـــم دُفنـــوا

لـــولا بقايـــا معـــشرٍ ســـلفوا ... لتنبّهـــتْ مـــن نومهـــا الفـــتنُ

العـــصر راجـــت ســـوقُ باطلـــهِ ... فالحـــقُّ فيـــه مالـــه ثمـــنُ

فطـــنَ البرايـــا للـــذي وقعـــوا فيـــه ... وبعـــضُ النـــاس مـــا فطنـــوا

يـــا قـــوم هبّـــوا مـــن مضاجعكـــم ... طـــال المـــدى حتّـــام ذا الوســـنُ؟!

يـــا وطنًـــا قـــد جـــرى الفســـادُ بـــه ... متـــى يرينـــا إصلاحـــك الزمـــنُ

دفنـــت حيًّـــا ومـــا دنـــا أجـــل ... مـــا ضرّ لـــو دافنـــوك قـــد دفنـــوا

دمـــاء أبنائـــك الكـــرام جـــرت ... بحـــرًا فأشـــلاؤهم لـــه ســـفنُ

هبّـــوا بنـــي المجـــد إنّهـــا فـــرصٌ ... تمـــضي سراعًـــا حتّـــامَ ذا الوســـنِ

أمنتـــم الدهـــرَ في غوائلـــه ... والدهـــر خـــوان الألى ائتمنـــوا

وا أســـفًا يـــا زمـــان وا أســـفا ... أفنيـــت ظلـــمًا رجالنـــا ففنـــوا

نحـــن هدمنـــا والســـالفون بنـــوا ... نحـــن اســـترحنا والســـالفون عنـــوا

والأمر كذلك مع أمير الشعراء شوقي الذي ألهب ظهر رياض باشا عقب خطبته التي ألقاها في افتتاح (مدرسة محمد علي الصناعية) التي أنشأها بالإسكندرية جمعية العروة الوثقى سنة ١٩٠٤، وكان اللورد كرومر ممّن حضر هذا الافتتاح فتملقه رياض باشا بكلامٍ كفر به بنعمة مصر، وأصحاب عرشها، فأوسعه شوقي تأنيبًا وتعنيفًا، حيث يقول[١]:

غمــرتَ القــومَ إطــراءً ومدحــا ... وهــم غمــروك بالنعــم الجســامِ

رأوا بالأمــس أنفــك في الثريــا ... فكيــف اليــوم أصبــح في الرغــامِ

أمــا واللــه مــا علِمــوك ألا ... صغــيراً في ولائــك والخصــام

إذا مــا لم تكــن للقــول أهــلاً ... فــما لــك في المواقــف والــكلام؟

خطبــتَ فكنــتَ خَطْبًــا لا خطيبًــا ... أضيــف إلى مصائبنــا العظــامِ

لهجــتَ بالاحتــلالِ ومــا آتــاه ... وجرحــك منــه لــو أحســتت دامــي

ومــا أغنــاه عمّــن قــال فيــه ... ومــا أغنــاك عــن هــذا الترامــي

ومن الحوادث الدموية التي أقدم عليها الاحتلال الإنجليز (حادثة دنشواي) المشهورة، الذي راح ضحيتها العشرات من أبناء القرية، ناهيك عن تلكم المحاكمة الهزلية التي أقيمت لأبناء القرية الأبرياء، وقد كان لهذي الحادثة دويٌّ قوي، لا في مصر وحدها وإنّما في العالم كله.

ومن ذلك قول حافظ إبراهيم منددًا بما حدث في حادثة دنشواي، رافضًا إيّاه، ملقيًا باللوم على

١. أحمد شوقي، الشوقيات، ص٢٣٤.

الاحتلال، وما قام به من محكمةٍ هزليةٍ للضحايا [١]:

أتِلْـكَ مَحْكَمَـــــةُ التَّفْتيـــــــــ
ـــشِ عــادَتْ، أمْ تِلْـكَ عَهْـدُ نِيـرُونَ عــادا
كَيْـفَ يَحْلُـو مِـنَ القَـوِيِّ التَّشَـفِّي
مِــنْ ضَعيــفٍ ألْقَــى إلَيْــهِ القِيــادا

ثم نراه يتحدّث عن الفّلاحين المظلومين الذين راحوا ضحية الحادثة، سواء من قُتل منهم، أو من حُكِم عليه بالموت ظلمًا وعدوانًا [٢]:

جُلــدوا ولــو منّيتهــم لتعلّقــوا
بحبــال مــن شــنقوا ولم يتهيّبــوا
شُــنقوا ولــو مُنحــوا الخيــار لأهلهــا
بلظــى ســياط الجالديــن ورحبّــوا
يتحاســدون عــلى المــمات وكأســه
بــين الشــفاه وطعمــه لا يَعْــذِبُ

ثم لا يلبث حافظ إبراهيم أن يسخر من جنود الاحتلال، وما قاموا به:

أيّهــا القائمــون بالأمــر فينــا
هــل نســيتم ولاءنــا والــودادا
خَفِّضــوا جيشــكم ونامــوا هنيئًــا
وابتغــوا صيدكــم وجوبــوا البــلادا

وفي نهاية قصيدته ينحى باللائمة على ذلكم القاضي المصري (إبراهيم الهلباوي) الذي باع نفسه للشيطان، ذلكم المدّعي العام في المحكمة الصورية التي نصبت لهؤلاء الأبرياء من أبناء

١. حافظ إبراهيم، ديوان حافظ إبراهيم، ص١٥٥.

٢. المصدر السابق، ص ٥٥.

هذي القرية، إذ كان ممثّلاً- ويا لخيبته - للاحتلال الانجليزي[١]:

أيّهـا المُدّعـي العمومـيّ مهـلا
بعـض هـذا؛ فقـد بلغـت المُـرادا
قـد ضمنّـا لـك القضـاء بمـصرٍ
وضمنّـا لنجلـك الإسـعادا
فـإذا مـا جلسـتَ في الحكـم فاذكـر
عهـدَ مـصر فقـد شـفيتَ الفـؤادا

وممّا قاله شوقي في حادثة دنشواي - بعد عام – منددًا بالاحتلال، متحدّثًا عن جرائمه[٢]:

يـا دنشـواي عـلى ربـاك سـلامُ ذهبـتْ بأنـسِ ربوعِـك الأيـامُ
شـهداء حكمـك في البـلاد تفرّقـوا هيهـاتَ للشـملِ الشـتيت نظـامُ
مـرّت عليهـم في اللحـود أهلـةٌ ومـضى عليهـم في القبـور العـامُ
كيـف الأرامـل فيـك بعـد رجالهـا وبـأيّ حـالٍ أصبـح الأيتـامُ؟
عـشرون بيتًـا أقفـرتَ وانتابهـا بعـد البشاشـة وحشـةٌ وظـلامُ
يـا ليـت شِـعري في الـبروج حمائـمٌ أم في الـبروج منيّـةٌ وحِـمامُ
نـيرونُ لـو أدركـت عهـدَ كرومـرٍ لعرفـت كيـف تُنفّـذ الأحـكامُ؟
نُوحـي حمائـمَ دنشـواي وروّعـي شـعبًا بـوادي النيـلِ ليـس ينـامُ
متوجّـعٌ يتمثّـلُ اليـومَ الـذي ضجّـت لشـدّة هولِـهِ الأقـدامُ
السـوط يعمـلُ، والمشـانق أربـعٌ متوحّـدات والجنـود قيـامُ

ولما غادر اللورد كرومر مصر وجاء السير غورست خلفًا له سنة ١٩٠٧، استقبله حافظ إبراهيم يشكو إليه ما فعله كرومر قائلاً[٣]:

١. حافظ إبراهيم، ديوان حافظ إبراهيم، ص١٤٤.

٢. أحمد شوقي، الشوقيّات، ص٢٣٢.

٣. حافظ إبراهيم، ديوان حافظ إبراهيم، ص١٤٥.

بنــات الشــعر إنْ هــي أســعدتني شــكوت مــن العميــدِ إلى العميــدِ

ثم يقول ساخرًا:

فليــتَ كرومــرًا قــد دام فينــا
يطــوق بالسلاســل كلّ جيــدِ
ويتحــف مــصر آنًــا بعــد آنٍ
بمجلــودٍ ومقتــولٍ شــهيدِ
لننــزعْ هــذه الأكفــانَ عنّــا
ونبعــثْ في العــوالم مــن جديــد

ثم يصف حافظ إبراهيم اللورد كرومر بعد رحيله ١٩٠٧، وتقاريره:

رمانــا صاحــب التقريــر ظلــمًا بكفــران العــوارفِ والكنــودِ
وأقســم لا يجيــب لنــا نــداء ولــو جئنــا بقــرآنٍ مجيــدِ
وبــشّرْ أهــلَ مــصرٍ باحتــلالٍ يــدوم عليهــم أبــدَ الأبيــدِ
وأنبــت في النفــوس لكــم جفــاءً تعهــده بمنهــلِ الصــدودِ
فأثمــر وحشــةَ بلغــت مداهــا وزكاهــا بأربعــةِ شــهودِ

كما رأينا الشاعر المحافظ محمد عبد المطلّب لا يألو جهدًا في الحديث عن المحتلّ الإنجليزي، معدّدًا جرائمه، منددًا بسياساته، في شعرٍ يفيض وطنيةً، ويقطر بالحماسةِ والثورة[١]:

يــرى نفسَــه فــوق القوانــين بيننــا
متــى مــا نذكــره القوانــين يحنــقِ
يبيــح غــدًا مــا حــرّم اليــوم بالهــوى
لغــير الهــوى في حكمــه لم يُوفّــقِ

١. محمد عبد المطلّب، ديوان محمد عبد المطلب، ص٨٨.

إلاهــة جبــار وإمــرة خاطــل
وتدبــير أعمــى في الحكومــة أحمــقِ
يقــرب خوّانًــا ويرفــع جاهــلاً
ويســعد أشــقاها ويشــقى بهــا التقــي
إذا مــا مــضى هــذا أتى ذاك بعــده
عــلى النهــج لم يعــدل ولم يترفّــقِ

ومن ذلك قوله مخاطبًا إيّاهم[1]:

يــا دولــةَ الأطــماع ِويلــكِ أقــصري
نهــضَ الزمــانُ عــن الــورى يجلــوكِ
لا يُزهينّــك في المطــيرِ قــوادمُ
برقــتْ بألــوانٍ لهــا وحبيــكِ
إنّ القشــاعمَ إنْ تثاقــل نهضهــا
هرمًــا فقــد صــارت إلى تهلــوكِ
لا يخدعنّــكِ في حياتــك معــشرٌ
في خدمــة اســتعمارهم خدعــوكِ
أبنــاءَ مــصر إذا الخطــوب تحلّكــت
أقــمار كلّ دجنــةٍ وحلــوكِ

ومن ذلك ديوان (وطنّيتي) لعلي الغاياتي قصيدة بعنوان (نحن والاحتلال)، وقد ألقاها في الاجتماع الوطني الذي انعقد بدار اللواء ١٩١٠، يقول في مطلعها[2]:

كفكفــي يــا مــصرُ دمــعَ الوجــلِ
وارتقــبْ يــا نيــلُ نيــلَ الأمــلِ

١. المصدر السابق، ص٩٨.

٢. يُنظر: علي الغاياتي، ديوان وطنيتي، ص ٤٤.

جــاوز الصــبرُ المــدى والصــدرُ لم
يُبــقِ فيــه الوجــدُ مــن محتمــلِ
كــم شــقاء كــم بــلاء كــم أذى!
أيّ حــالٍ بعــد ذا لم يحــلِ
كلّ يــومٍ حــادثٌ مســتقبلٌ
ليــت شــعري مــا حديــث المقبــلِ
ضجّــت الأهــرام مــن موقفهــا
وجــرى النيــلُ بدمــعٍ هطــلِ
كنــت تجــري أيّهــا النيــلُ كــما
شــئتَ في القطريــن عــذب المنهــلِ
يــوم كان المجــد مرفــوع اللــواء
بهــدى الفكــر وبــأس العمــلِ

كما لم يَغِب النثر عن دوره التنويري التحريضي الثوري في مقاومة الاحتلال الانجليزي، تبدّى ذلك في إصدار العديد من الصحف المناوئة للاحتلال، فقد رأينا علي يوسف يصدر (المؤيّد) كما رأينا ذلك سابقًا مع عبد الله النديم وإصدره جريدة (الأستاذ)، ثم مصطفى كامل يصدر(اللواء).

وقد قام مصطفى كامل بدورٍ مهمٍّ في هذه الفترة، حتى كان عنوانًا للنضال، وشارةً للثورة على الظلم، ممّا جعله يسافر إلى لندن ليعرض قضية مصر في بلاد الاحتلال، ويقابل بعضًا من رجال السياسة وأعضاء البرلمان الإنجليزي والصحفيين، ويتحدّث عن حادثة دنشواي التي هزّت مصر والعالم كلّه.

«ثم يخطب في جمعٍ بلغ مائتين وخمسين شخصًا خطبةً بليغةً باللغة العربية، شكرهم على حفاوتهم به، وأفاض في الكلام عن الأمم الشرقية والإسلامية وواجب المتعلّمين من أبنائها في السعي لإنهاضها وترقيتها، ثم وقف ثانية بعد أن انتهى الخطباء من إلقاء كلماتهم، وألقى خطبةً باللغة الفرنسية، مجّد فيها الحرية، وذكر أنّها حقٌّ مشاعٌ لكلّ الشعوب، ومن هنا ليس ثمّة فارقٌ بين الأمم، وإنْ تعدّدت أجناسها، واختلفت بيئاتها. ولقد كان لهذه الخطبة دويٌّ هائلٌ في مصر؛

إذ عُدّت نصرًا عظيمًا، وفوزًا مبينًا للوطنيّة المصريّة، وعملاً مجيدًا تميّز بالشجاعة الفائقة والوطنيّة الجريئة، والمقدرة العظيمة، وقبل عودته إلى مصر تألّفت لجنة للاحتفال به، وتقديم هديةٍ فاخرةٍ له؛ لحسن بلائه، وعظيم جهاده، فلما أن وصل إلى سمعه هذا النبأ إلّا وأرسل لمحمد بك فريد، وكان هو القائم على تنفيذ هذا المشروع، يطلب إليه تحويل هذا الاكتتاب لإنشاء جامعة، يتعلّم فيها أبناء المصريين، الأغنياء منهم والفقراء على حدٍّ سواء، ويذكر أنّه لم يقم إلّا بما يفرضه عليه الواجب الوطني، كأيّ جنديٍّ يدافع عن بلاده في ساحة القتال، وقد دلّ هذا العمل على تواضعه، وتفانيه في خدمة بلاده، ممّا لا يمكن أن يقوم به سوى العصبة من الرجال، لا يرجون من وراء ذلك جزاءً ولا شكورًا» [١].

ولما وقعت حادثة دنشواي وكان ما كان من الاحتلال من قتلٍ وسحلٍ للفلاّحين، ثم تلك المحاكمة الهزلية الصورية للأبرياء، والحكم على بعضهم بالإعدام، وكان إذاك لا زال في مقرّ إقامته في أوربا، استحثّه الأمر، وهاله ما حدث، فكان ممّا قال:» إنّ حادثة دنشواي أحدثت فعلاً تأثيرًا سيئًا، ومن شأنها إفهام العالم أجمع أنّ المصريين يكرهون الاحتلال»[٢].

ويقول مصطفى كامل مناديًا بمقاومة الاحتلال، وفضح جرائمه، متحدّثًا عن بشاعته، مخاطبًا الملايين من أبناء الشعب المصري: « أيهّا السادة لا يجهل أحد منكم أنّ الحركة الوطنيّة المصريّة أزعجت محبّي الاستعمار من الإنجليز؛ فحاربوها في دنشواي فخابوا، وبزيادة جيش الاحتلال فأخفقوا، وبتهمة التعصّب الديني ففشلوا، وأضحكوا العالم طرًّا، وهاهم الآن يحاربونهم بالخونة والمنافقين، بعد أن عهدوا للدخلاء طويلاً، فلم يبلغوا منا مأربًا»[٣].

ثم يقول منددًا بسياسة المستعمِر: «يروق لبعض الجهلاء والمسخّرين لخدمة الإنكليز أن يلقّبونا (بالمتطرّفين)، ويقسموا الأمة إلى فرقٍ وأقسامٍ، وما دروا أنّه لا يصح أن يوجد في البلاد الفاقدة لاستقلالها المتحكم الأجنبي فيها، إلّا حزبٌ واحد، وهو حزب الوطن، حزب الحرية، حزب الاستقلال ... نلقب بالمتطرّفين! ولماذا؟! لأنّنا نطالب بحقوق مصر الكاملة في مستقبل بلادنا،

١. يُنظر: عبد الرحمن الرافعي، مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية، ص٢١٣.

٢. يُنظر: المصدر السابق، ص٢٠٢

٣. يُنظر: يواقيم رزق مرقص، أوراق مصطفى كامل، ص ٢٠٨.

ونقول لهذه الأمة في الصباح والمساء اليوم عسر، وغدًا يسر، اليوم أسر، وغدًا فخر، اليوم احتلال، وغدًا استقلال، اليوم عناء وشقاء، وغدًا هناء ورخاء»[١].

وممّا لا شكّ فيه أنّ الاستعمار يؤثّر في المجتمعات من كلّ النواحي الاجتماعيّة والسياسيّة، والاقتصاديّة، والثقافيّة، بل النفسيّة أيضًا؛ فكان ممّا قام به الاحتلال إشاعة الحرب النفسيّة التي تنعكس آثارها على سلوك الأفراد في حياتهم اليوميّة؛ وذلك من خلال إحداث الاضطراب، والبلبلة، وزرع الخوف، وعدم الثقة في النفس، وبثّ روح الكراهية، والتفرقة بين الأفراد، وما يؤدّي في النهاية إلى الإحساس بالضعف والاستسلام، فإذا نجحت في ذلك تسرّب اليأس إلى النفس، وأصبحت صيدًا سهلاً يمكن الانقضاض عليه وافتراسه.

«والحقيقة أنّ الحرب النفسية لم يبتدعها أيّ عالم، أو صاحب نظريةٍ أو مفكّر، إنّها ابنة التاريخ، تاريخ البشريّة وصراعاتها التي لا تنتهي، وهي تنشأ عن الثورات الأيديولوجيّة، وعن تحوّلات المجتمعات السياسيّة، وهي ثمرةٌ من ثمرات التقدّم الذي حقّقه علم النفس الاجتماعي في شتّى ميادين نشاطه» [٢].

وكان من مساوئ الاحتلال أيضًا تجريف الشخصيّة المصريّة من خلال نشر الثقافة الإنجليزيّة عنوة الأمر الذي جعلها أسوأ العهود على الأمة العربيّة والإسلاميّة، وذلك من خلال سياسات اللورد كرومر في مجال التعليم والثقافة، يريد بذلك صناعة جيلٍ تافهٍ، لا يقدّر قيمةً، ولا يأبه بسلوك.

وقد كان الغرض من هذه الاجراءات وغيرها تمكين المستعمِر الانجليزي في هذي الديار، وتثبيت أقدامه، ولن يتأتّى له ذلك إلاّ إذا ظلّت مصر في ظلامٍ دامس، تتخبّط في يهماء دامسة، ودروبٍ مضللة، متخلفةً بذلك عن ركب الحضارة والمدنية، بل إنّ المستعمِر الانجليزي، ممثّلاً في سياساتٍ دنلوب رأوا أنّ المصريين ليسوا أهلاً للتدريس بالمعاهد العالية، فقصروها على الأجانب.

وفي ذلك يقول حافظ إبراهيم مخاطبًا اللورد كرومر[٣]:

---

١. يُنظر: المصدر السابق، ص٢٠٦.

٢. يُنظر: خليل صابات، مجلة الفكر المعاصر، ص ٢٠.

٣. يُنظر: حافظ إبراهيم، ديوان حافظ إبراهيم، ص١٥٥.

تمــنُّ علينــا اليــوم إنْ أخصــب الــثرى
وإنْ أصبــح المــصري حــرًّا مُنعّــمًا

أَعِــدْ عهــدَ إســماعيل جلــدًا وســخرةً
فــإنيّ رأيــت المــنَّ أنــكى وآلمــا

عملتــم عــلى عــزّ الجــماد وذُلنــا
فأعليتــم طينًــا وأرخصتــم دمــا

إذا أخصبــت أرضٌ وأجــدب أهلهــا
فــلا أطلعــت نبتًــا ولا جادهــا الســما

وإلى أن يقول مودّعًا له ومشيرًا إلى مأساة التعليم على عهده[1]:

ينادیــك قــد أزريــتَ بالعلــم والحِجــا
ولم تبــقِ للتعليــم يــا (لُــردُ) معهــدا

وأنّــك أخصبــت البــلاد تعمّــدًا
وأجدبــت في مــصر العقــول تعمّــدا

وأودعــتَ تقريــرَ الــوداع مغامــزًا
رأينــا جفــاءَ الطبــع فيهــا مُجسّــدا

ينادیــك أيــن النابغــون بعهدكــم
وأيّ بنــاءٍ شــامخٍ قــد تجــودا

فــما عهــد إســماعيل والعيــش ضيــق
بأجــدب مــن عهــدٍ لكــم ســال عســجدا

ومن ثم فقد ظلّ الأمر على هذا المنوال من التردي ردحًا من الزمان وحينًا من الدهر، والمصريون بكلّ طوائفهم يلحّون على عودة اللغة العربيّة إلى المدارس المصريّة، يفعلون ذلك دونما جدوى، والإنجليز يصمّون آذانهم، معرضين عن نداءاتهم، رافضين مطالبهم. واستمع لأحد دعاتهم وهو السير ويليام ويلككس في خطبته التي ألقاها في نادي الأزبكية سنة ١٨٩٣م، والتي جعل عنوانها

١. يُنظر: المصدر السابق، ص١٤٧.

(لِمَ لَمْ توجد قوة الاختراع لدى المصريين؟!) وذكر أنّ العامل الأكبر في فقد قوّة الاختراع لديهم هو استخدام اللغة العربيّة الفصحى في القراءة والكتابة، ونصحهم باتّخاذ اللغة العامية أداةً للتعبير الأدبي اقتداء بالأمم الأخرى، واستشهد بالأمة الإنجليزية، وقال: إنّها أفادت فائدةً كبيرةً منذ هجرت اللاتينية التي كانت كانت لغة الكتابة والعلم يومًا ما.

وكان هذا الرجل من أشدّ أعداء اللغة الفصحى، وقد بذل غاية جهده لمحاربتها والقضاء عليها، وقد أخذ (سلامة موسى)، يدعو كما دعا ويلككس إلى اتّخاذ العامية لغة كتابةٍ بدعوى أنّ الفصحى فيها صعوبة وأنّها عاجزةٌ عن تأدية الرسالة الأدبيّة والعلميّة [١]. فرد عليهم حافظ إبراهيم بقصيدته الخالدة على لسان اللغة العربيّة، تنعى نفسها، وتندب حظّها، وترثي ما آلت إليه عند أهلها، والقائمين عليها، يقول فيها من قصيدةٍ طويلةٍ، تقطر ألمًا، وتمطر حسرةً [٢]:

رجعــتُ لنفــسي فاتّهمــتُ حصــاتي
ونادیــتُ قومــي فاحتســبتُ حيــاتي

رمــوني بعقــمٍ في الشــباب وليتنــي
عقمــتُ فلــم أجــزع لقــول عــداتي

أيطربكــم مــن جانــب الغــرب ناعــبٌ
ينــادي بــوأدي في ربيــعِ حيــاتي

ويقول في قصيدةٍ أخرى حاثًّا بني وطنه على مباراة الغربيين في حضارتهم، وأخذهم بأسباب الوصول بهذي الغاية [٣]:

ليــت شــعري متــى أرى أرض مــصر
في حمــى اللــه تنبــت الأبطــالا

١. ينظر: عمر الدسوقي، في الأدب الحديث، ج٢، ص ٤٣.

٢. يُنظر: حافظ إبراهيم، ديوان حافظ إبراهيم، ص٣٣.

٣. يُنظر: المصدر السابق، ص ٢٣٣.

وأرى أهلهـا يبارونكـم علـمًا
ووثبًـا إلى العـلا ونضـالا
قـد نفضنـا عنـا الكـرى وابتدرنـا
فـرض العيـش وانتقلنـا انتقـالا
وعلمنـا بـأنّ غفلـة يـومٍ
تحـرم المـرء سـعيه أحـوالا

وفي هذا الإطار يقول شوقي في التعليم والعلم[1]:

كانـت لنـا قـدمٌ إليـه خفيفـةٌ
ورمـت ب (دنلـوب) فـكان الفيـلا
حتـى رأينـا مـصر تخطـو إصبعًـا
في العلـم إنْ مشـت الممالـك ميـلا
تلـك الكفـور وحشـوها أمّيـةٌ
مـن عهـد خوفـو لم تـرَ القنديـلا

نكبة دمشق في شعر شوقي

وقد أبدع شوقي عام ١٩٢٤ في التعبير عمّا حدث لدمشق، في قصيدةٍ مدويةٍ، تأسى على ما حدث، تقرع الأجراس، وتشدّ الأزر، وهي التي يبدؤها بقوله:

سـلامٌ مـن صبـا بـردى أرقُّ
ودمـعٌ لا يُكفكـفُ يـا دمشـقُ.

وفيها يأسى على ما حلّ بدمشق، ويفضح طبيعة الاستعمار وجرائمه، ويدعو الى مقاومته، والحذر من أساليبه، دعوة الشعوب للكفاح، والثورة للحرية والعدالة والنضال، وتهديد المحتلّ

١. يُنظر: احمد شوقي، الشوقيّات، ج٣، ص ٣٤.

بثوراتٍ عارمةٍ ستقضي عليه وعلى ديمومته، بعث الأمل في النفوس المتعبة التوّاقة إلى الحرية والانطلاق وقدرتها على التحرّر من العبودية، والتغنّي بأماله وآلامه وطموحاته وتطلعاته، وإيقاظ الضمير القابع في كلّ إنسان.

وهكذا كان الشعر المرآة الصادقة للتعبير عن حالة اليأس، والآلام، والآهات، والأحزان، والهموم، كان شعرًا ينبض بالغضب، ويعلي من شأن الثورة، واستطاع الشعراء كيف يعبّرون ويتجاوزون مراحل اليأس والسلبية والإحباط والتخبّط، مواكبين ما يحدث في المجتمع، معبّرين عن أعماق القلب وخلجات الشعور.

الاستعمار الإيطالي في ليبيا

وقد أدلى الشعراء المصريون قبل الليبيّين بدلوهم في مواجهة هذا المستعمِر الغاصب؛ ذلك أنّ العالم العربي كله كالجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى.

وفي حرب طرابلس أردات بها إيطاليا أن تنتزع تلك الولاية الإسلاميّة من تركيا سنة ١٩١١ ، هبّت مصر تشدّ أزر تركيا، وتسعف جرحى الحرب وترسل المال والزاد، وكان المصريون ينظرون إلى تلك الحرب على أنّها حربٌ ضد الإسلام وضدّ دولة الإسلام، وأنّهم طرف فيها[١] .

ومن هؤلاء الشعراء الذين عبّروا عن غضبهم الشاعر الكبير محمد عبد المطلّب الذي لم يغبْ عنه أن يعبّر عن شعوره بهذا الظلم، حاثًّا قومه للثورة على الاستعمار الإيطالي وجرائمه الوحشيّة، يقول في ذلك [٢]:

هــي الهيجــاء كــم طحنــت قرونًــا
وكــم ســحنت حوادثهــا قرونــا

ويقول مخاطبًا الإيطاليين:

١. يُنظر: عمر الدسوقي، في الأدب الحديث، ج٢، ص ١٢٣.

٢. يُنظر: المصدر السابق، ج٢، ١٣٣، عبد المطلب، وديوان عبد المطلب، ص ١٤٤.

خرجتــم مــن منازلكــم بغــاةً
عــلى أوطاننــا تتغلبونــا
غــداة ملأتــم الدنيــا صياحًــا
بــه بــين الأزقــة تهتفونــا
وأقلقتــم ملــوك الأرض لمّــا
برزتــم تبرقــون وترعدونــا

ويقول مخاطبًا ملوك أوربا:

بغــت رومــا فلــم نســمع نكــيرًا ولــو شــاؤا ســمعنا المنكرينــا
وإنْ نغضــب ذيــادًا عــن حيــاضٍ لنــا هُدمــت إذا هــم يســخطونا
ملــوك الغــرب مــا هــذا التعامــي ومــا للحــقّ بينكــم مهينــا؟!
يســاق ضعافنــا للمــوت بغيًــا وأنتــم تســمعون وتبصرونــا

ويقول في قصيدةٍ أخرى يحرض فيها المسلمين على الجهاد والتطوّع مع إخوانهم أهل طرابلس[١]:

بنــي أمّنــا أيــن الخميــس المــدرّبُ
وأيــن العــوالي والحســام المــذرّبُ؟!
وأيــن النفــوسُ الــلاء كــن إذا دعــا
إلى اللــه داعــي المــوت في المــوت ترغــبُ؟!

وهكذا كان الشعراء يعّبرون عن عواطفهم تجاه قضايا الأمّة العربيّة والإسلامية، لا يمنعهم في ذلك حدود، ولا تردعهم سطوة، ولِمَ لا وهم لسان الأمة، وقلبها النابض، وروحها الرهيفة، وعقلها الواعي، الذي يدرك المخاطر، ويعبّر عن مكنوناتها، ويسبر أغوارها، يقف حجر عثرةٍ في وجه المستعمر، يفضح مخططاته، ويكشف جرائمه، يفعل ذلك في كل عصر ومصر.

١. يُنظر: عمر الدسوقي، في الأدب الحديث، ج٢، ص ١٣٤، عبد المطلّب، وديوان عبد المطلّب، ص٥٥.

الاستعمار الفرنسي في تونس

وقعت تونس تحت الاحتلال الفرنسي منذ الثاني عشر من مايو ١٨٨١م، وخضعت البلاد منذ ذلك الحين لسياسةٍ خبيثةٍ، تستهدف إبقاء الشعب التونسي في حالةٍ من التخلّف الفكري عن طريق تشجيع الهياكل الثقافيّة التقليديّة والحيلولة دون قيام أيّ حركةٍ تنويريّةٍ أو محاولة إصلاحٍ مستنيرة، والهدف الاستعماري لهذه السياسة معروف، ومن ثم كان لحركة التجديد الفكري والأدبي في تونس، كما الشأن في مصر وفي الشام وفي العراق وجهها السياسي بالضرورة؛ فقد كانت الدعوة إلى تحرير الأدب من قيوده التقليدية البالية هي في نفسها دعوة إلى تحرير الإنسان من الظلم السياسي والاجتماعي الواقع به[١].

ربما يكون أبو القاسم الشابي (١٩٠٩- ١٩٣٤) من أهمّ الشعراء المُحدَثين الذين تغنّوا للوطن والحرية والحياة، ووقفوا ضدّ المحتلّ والمستعمِر بكلماتٍ أقوى من الرصاص، وقصائد أشدّ من السهام، كانت وما تزال أنشودة الشعوب المقهورة، وترنيمة الأوطان المغتصبة والأمم المنتهكة؛ بحثًا عن الحرية ورغبة في التخلّص من الأسر والقيود، ورفضًا للعبوديّة والاستسلام والخضوع.

أصيبت تونس الخضراء في حريّتها كما أخواتها من الدول العربيّة، فاحتلّتها فرنسا عام ١٨٨١، وقامت باللعبة ذاتها التي لعبتها جلّ الدول الاستعماريّة التي حاولت أن تقنع الأوطان أنّها ما جاءت وما احتلت بلادهم إلّا من أجل تخليصهم من الظلم والقهر والعبوديّة التي يعيشون فيها، وضدّ حكامهم وسلاطينهم، لكن تلك المبررات وهاته الأسباب سرعان ما انكشف أمرها، وعرفت هذي البلاد وخبروا الوجه الاستعماري القبيح لتلك القوى المغتصبة، فثارت عليهم بكلّ ما أوتيت من قوة، وظلّت تحارب من أجل حريتها المفتقدة حتى كان لها ما أرادت.

وإنّ الناظر لديوان الشابي ليلاحظ أنّه يعجّ بعشرات القصائد الرنانة التي تنبض حبًّا للوطن، وتقطر غيظًا وحنقًا على المحتلّ المستعمِر الغاصب، تدعو إلى الثورة، وتهيب بالشعوب إلى عدم الرضوح والاستكانة والرضا بالأمر الواقع، تلتهب عاطفة، وتوقظ الحماسة في نفوس الشعوب، وتشحذ الهمم التي ربما أصابها السقم، وران عليها الخنوع، وغطاها الاستسلام.

وقف الشابي بكلّ ما أوتي من قوة الكلمة وسحر البيان وبراعة اللسان، ملتزمًا بذلك أمام شعبه

١. أبو القاسم الشابي، الأعمال الشعريّة الكاملة، ص١٠٣.

وأمته ووطنه، مقاومًا الظلم والطغيان، والعبودية والاستعباد، رافضًا المصالحة مع الواقع المتردي، والحاضر القميء، والمحتل الدنئ، متحسّرًا في الوقت ذاته على ما أصاب البلاد والشعوب من ضعفٍ وظلمٍ وجهل، باحثًا عن وطنٍ مثالي يعيش فيه أبناء وطنه، بعيدًا عن المعاناة والظلم والطبقية، والاحتلال.

لقد أدرك الشابي ذلك الظلام الدامس الذي شاء الاستعمار أن ينشر أطنابه على البلاد، فقال:

إنّ ذا عصر ظلمةٍ غير أنيّ
من وراء الظلام شمتُ صباحه
ضيّع الدهر مجد شعبي ولكن
سترد الحياة يومًا وشاحه

وأدرك في الوقت نفسه الظلم الواقع على أبناء شعبه عن طريق سنّ القوانين التي تسلبهم حقوقهم الإنسانيّة وحرياتهم؛ فصرخ في وجهه، قائلاً:

ألا أيّها الظلم المصعّر خدّه رويدك؛ إنّ الدهر يبني ويهدمُ
أغرّك أنّ الشعب مغضٌّ على قذى لك الويل من يوم به الشرّ قشعمُ؟!

ومن ذلك قصيدته إلى طغاة العالم التي يستهلها بقوله:

ألا أيّها الظالم المستبدُّ
حبيب الفناء عدو الحياة

وأدرك وقوف الاستعمار في وجه أيّ حركةٍ إصلاحيّةٍ مستنيرة، فقال:

كلما قام في البلاد خطيبٌ
موقظٌ شعبه يريد صلاحه
أخمدوا صوته الإلهي بالعسف
أماتوا صداحه ونواحه

ألبســوا روحــه قميــصَ اضطهــادٍ
فاتــكٍ شــائكٍ يــردُّ جماحــه

كما أدرك الشابي أنّه لن يخرج الشعب من حالة الموات إلى عنفوان الحياة إلّا إذا نشط فيه دافع الحياة، وإلّا إذا (أراد) حقًّا أن يكون شعبًا حيًّا، وهذه الإرادة لا تتحقّق بطريقةٍ عفوية، بل رهن بمدى حرارة الأشواق التي يستشعرها الإنسان إزاء الحياة، فإذا اشتعلت في نفسه هذه الأشواق تولّدت الإرادة، وتغلّب فيه دافع الموت، وعند ذاك يصبح الطموح دليل الإنسان إلى المغامرة، فإذا خمدت أشواق الحياة في نفس الإنسان فقد الطموح وكفّ عن المغامرة، وصار حيًّا كأنّه ميت، أو ميتًا كأنّه حي، وفي هذا يقول الشابي في أبياته المشهورة في قصيدته إرادة الحياة:

إذا الشــعب يومًــا أراد الحيــاة فــلا بــدّ أن يســتجيب القــدرْ
ولا بــدّ لليــل أن ينجــلي ولا بــدّ للقيــد أن ينكــسرْ
ومــن لم يعانقــه شــوق الحيــاة تبخّــر في جوهــا واندثــرْ
فويــلٌ لمــن لم تشــقهِ الحيــاة مــن صفعــة العــدم المنتــصرْ

ثم يعود في القصيدة ذاتها لكي يؤكّد هذه المعاني حين يقول على لسان الأرض[١]:

أبــاركُ في النــاس أهــلَ الطمــوح ومــن يســتلذُّ ركــوبَ الخطــرْ
وألعــنُ مــن لا يمــاشي الزمــانَ ويقنــعُ بالعيــش عيــش الحجــرْ
هــو الكــون حــيٌّ يحــبُّ الحيــاة ويحتقــرُ الميــتَ مهــما كــبرْ

١. أبو القاسم الشابي، الأعمال الشعرية الكاملة، ص١٠٢.

فــلا الأفــق يحضــن ميــت الطيــور
ولا النحــل يلثــم ميــت الزهــرْ
ولــولا أمومــة قلبــي الــرؤوم
لمــا ضمــت الميــت تلــك الحفــرْ
فويــلٌ لمــن لم تشــقه الحيــاة
مــن لعنــة العــدم المنتــصرْ

وفي قصيدته (تونس الجميلة) يعبّر عمّا اعتراها من خَطْبٍ، وما حطّ عليها من ظلمٍ، مؤكّدًا أنّه لن يستريح إلّا بعد أن تنال مرادها، وتحصل على مبتغاها، يقول[١]:

لســت أبــكي لعســف ليــلٍ طويــلٍ أو لربــعٍ غــدا العفــاءُ مراحــه
إنمّــا عــبرتي لخطــبٍ ثقيــلٍ قــد عرانــا ولم نجــدْ مــن أزاحــه
شرعتــي حبــك العميــق وإنيّ قــد تذوقــت مــرّه وقراحــه
لســت أنصــاع للواحــي ولــو مــتُّ وقامــت عــلى شــبابي المناحــه
لا أبــالي وإنْ أريقــت دمــائي فدمــاء العشــاق دومًــا مباحــه

ثم يعلنها مدويةً عاليةً، صارخًا، في قصيدته (إلى الطاغية)، مؤكّدًا رفض الظلم، والاستعباد، وأنّ الشعب إذا اعتراه هوانٌ أو صمت فإنّه سرعان ما سيقوم منتفضًا، محطّمًا قيده، فاكًّا أسره، يقول[٢]):

يقولــون صــوت المســتذلّين خافــت
وســمع طغــاة الأرض أطــرشُ أضخــمُ
وفي صيحــة الشــعب المســخّر زعــزع
تخــرّ لهــا شــمُ العــروش وتهــدمُ

١. المصدر السابق، ص١٣٢.

٢. أبو القاسم الشابي، الأعمال الشعرية الكاملة، ص١٦٦.

ولعلعلــة الحــقّ الغضــوب لهــا صــدى ودمدمــة الحــرب الــضروس لهــا فــمُ

إذا التــف حــول الحــق قــومٌ فإنّــه يــصرم أحــداث الزمــان ويــبرمُ

لــك الويــل يــا صرح المظــالم مــن غــدٍ إذا نهــض المســتضعفون وصمّمــوا

إذا حطّــم المســتعبدون قيودهــم وصبّــوا حميــم الســخط أيّــان تعلــمُ

أغــرّك أنّ الشــعب مغــضٌّ عــلى قــذى وأنّ الفضــاء الرحــب وســنان مظلــمُ

ألا إنّ أحــلام البــلاد دفينــةٌ تجمجــم في أعماقهــا مــا تجمجــمُ

ولكــن ســيأتي بعــد لأيٍ نشــورها وينبثــق اليــوم الــذي يترنــمُ

هــو الحــق يغفــي ثــم ينهــض ســاخطًا فيهــدم مــا شــاد الظــلام ويحطــمُ

ثم يستحث الشعب للثورة وعدم الركون إلى الاستسلام والخضوع والذلة، فيقول معاتبًا إيّاه هذا الرضا بما وصل إليه، راثيًا لما آل إليه حال الشعب من الاستكانة[1]:

أيــن يــا شــعبُ قلبُــك الخافــق الحسّــاسُ؟ أيــن الطمــوح والأحــلامُ؟

أيــن يــا شــعب فنّــك الســاحر الخــلّاقُ؟ أيــن الرســومُ والأنغــامُ؟

١. المصدر السابق، ص٣٣٧.

إنّ يــمَّ الحيــاة يــدوي حواليــكَ
فأيــن المغامــرُ المقــدامُ؟
أيــن عــزمُ الحيــاة لا شيء إلاّ
المــوت والصمــت والأسى والظــلامُ؟
عُمــرٌ ميــتٌ وقلــبٌ خــواءُ
ودمٌ لا تثــيره الآلامُ
وحيــاةٌ تنــام في ظلمــة الــوادي
وتنمــو مــن فوقهــا الأوهــامُ
أيّ عيــشٍ وأيّ حيــاة
ربَّ عيــشٍ أخــفّ منــه الحِــمامُ؟!

وغير ذلك من القصائد الرنّانة القوية التي تملأ دواوين الشابي، لتؤكّد أنّه وبالرغم من صغر سنّه فإنّه كان في طليعة الشعراء الذين كان لهم دورٌ كبيرٌ في التعريف بجرائم الاحتلال في شعرٍ ثوريّ كان ولا يزال أنشودة الشعوب المقهورة الطامحة نحو آفاق الحرية وفضاءات الحياة.

قائمة المصادر والمراجع

١. أحمد شوقي، الشوقيّات، دار الكاتب العربي، بيروت، لبنان، د.ت.

٢. البارودي، محمود سامي البارودي، ديوانه، تحقيق: علي الجارم، محمد شفيق معروف، دار العودة، بيروت، ط١، ١٩٩٨.

٣. الجبرتي، عبد الرحمن الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والآثار، تحقيق: الأستاذ الدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، مكتبة الأسرة، ٢٠٠٣.

٤. حافظ إبراهيم، ديوانه، دار العودة، بيروت، د.ت.

٥. خليل صابات، مجلة الفكر المعاصر، مصر، ١٩٦٩.

٦. الشابي، أبو القاسم الشابي، الأعمال الشعرية الكاملة، دار العودة، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٦.

٧. شحاتة عيسى إبراهيم، عظماء الوطنية في العصر الحديث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٧.

٨. عبد الرحمن الرافعي، مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية، القاهرة، ١٩٥٠.

٩. عبد الرحمن الرافعي، مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال، ط٤، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٣.

١٠. عمر الدسوقي، في الأدب الحديث، دار الفكر، القاهرة، ط٨، ١٩٨٣.

١١. علي الغاياتي، ديوان وطنيتي، مطبعة باب الخلق، مصر، ط٢، ١٩٨٣.

١٢. محمد عبد المطلّب، ديوانه، مطبعة الاعتماد، القاهرة، د.ت.

١٣. ولي الدين يكن، ديوانه، مطبعة المقتطف، مصر، ١٩٢٤.